في الحاجة إلى رولان بارث

جعفر عاقل

المعهد العالي للإعلام والاتصال – الرباط

نؤكد بدءا أن قراءتنا هذه، لن تجازف بنفسها في مناقشة القضايا والأسئلة والمفاهيم التي تضمنتها طروحات بارث الخاصة بالاستعمالات اليومية للفوتوغرافيا في مجتمعاتنا المعاصرة. أي تلك الأشكال والمحتويات التي توظفها الفوتوغرافيا سواء في المجال الصحفي أو الإشهاري أو الفني أو غيرهم. أولا لأننا لا نتسلح بالمرجعيات المعرفية والحقول الفكرية نفسها التي غرف منها بارث أثناء تشييد أطروحته. وثانيا لأن الأفق الذي ترسمه هذه القراءة لنفسها لا يتعدى حدود إثارة بعض الملاحظات الخاصة بالعلاقة التي أسسها رولان بارث مع المغرب من خلال الصورة الفوتوغرافية.

الفوتوغرافيا في التحديد البارثي : ارتبطت إسهامات رولان بارث فيما يخص النقاش الفكري والثقافي والفني الذي عرفه القرن العشرين حول الصورة عموما والفوتوغرافيا تحديدا بالنسقية في التفكير والموسوعية في البحث. وهذا ما يفسر في تصورنا كيف أن جزءا كبيرا من النتائج المعرفية والمنهجية التي انتهت إليها نظرية بارث في هذا المضمار ما تزال تجيب عن القضايا والأسئلة الراهنة التي تثيرها الصور في مجتمعاتنا. الأمر الذي يطرح بإلحاح إعادة قراءة وتأمل ثم تفكيك الفكر البارثي.

لقد أخذت الصورة عموما والصورة الفوتوغرافية تحديدا حيزا هاما في كتابات بارث وأيضا من اهتماماته المنهجية والفلسفية والإيديولوجية. إن هذا الاهتمام الخاص بجوهر الفوتوغرافيا وتطور أسنادها وقضاياها الفنية والجمالية والثقافية قد يلمسه القارئ لأعماله حينما

يدرسها من منظور كرونولوجي. وبعودة القارئ لمؤلفاته كـــ"أساطير" و"نسق الموضة" و"امبراطورية العلامات" و"الغرفة المضاءة"؛ سيدرك حجم المساحة وكذا المكانة التي تتبوؤها الفوتوغرافيا في كتاباته. وهو الأمر الذي يجعل بارث في ظننا من أهم المؤسسين للنقد الفوتوغرافي في القرن العشرين.

وقد اتخذ منتجه النظري عن الفوتوغرافيا صيغا متعددة، إذ يتوزع ما بين كتابة ذات طابع منهجي وتارة ذات طابع ثقافي وأخرى ذات موضوع ذاتي / أوتوبيوغرافي. لكن، بالرغم من تعدد المقاربات والرؤى وزوايا المعالجة، فإن الخلاصات والنتائج والاستنتاجات تبقى واحدة. ويمكن تلخيصها إجرائيا في إثارة مجموعة من الأسئلة حول مفهوم النظر وقضايا المرئي وكيفية توليد المعنى في الصورة ثم الآليات التي توظفها الصورة للتأثير في المشاهد. أي التساؤل عن المكونات التي تشتغل بها الصورة الفوتوغرافية، سواء على مستوى المحتوى أو الشكل، في تمثيل "الواقع" وإنتاج المعنى والدلالة. لأن الفوتوغرافيا علاوة على وظيفتها التوضيحية أو التزيينية، فإنها تتضمن تمثيلا لمتخيل فردي أو جماعي، وهي من جهة أخرى تحوي حمولة إيديولوجية وثقافية. ثم إنها تعكس، من خلال استعمالاتها المتعددة هذه، حيوات الأفراد والمجتمعات، كما تعكس صورة عن نفسها وعن "الواقع" في الآن نفسه.

وقد خلص بارث من خلال تساؤلاته عن مصدر هذه السلطة التي تتمتع بها الصورة الفوتوغرافية إلى التفكير في توسيع دائرة بحثه، ليشمل أيضا تحليل النص اللفظي الذي قد يرافق الصورة في تثبيت معاني مدلولاتها. لأنه بالإضافة إلى المعرفة المسننة التي تعبر عنها الصورة الفوتوغرافية من خلال أسلوبها الخاص في الإحالة على الواقع وتصويره، ثم من خلال طريقتها الخاصة في استعمال العناصر البصرية، أي الأشكال والأحجام والألوان، الخ. هناك أيضا المكون اللفظي الذي يسهم بدوره في توليد معاني الصورة وفي إنتاج دلالتها، وذلك إما من خلال وظيفة الترسيخ التي تقوم بتقنين المعاني الإيحائية المتعددة التي تفوح بها الصورة أو من خلال وظيفة المناوبة التي تقوم بالتكامل والتشارك في تشكيل الصورة في ذهن المشاهد. فبدون هذه العلاقة التفاعلية، يصعب الحديث عن معنى الصورة حسب منطوق بارث ثم لأن الصورة تخضع بشكل غير مباشر للمفهمة التي يفرضها المكون اللفظي.

بارث والمغرب الفوتوغرافي: ارتبطت صورة المغرب في ذهن بارث، سواء خلال زياراته المتقطعة أو حتى خلال فترة إقامته القصيرة بمدينة الرباط، بالرغبة واللذة والمتعة. وقد أخذت هذه الأهواء تمظهرات متعددة عنده، فهي تارة تتجسد في صيغة كتابة شذرية، ومرة احتفاء جسديا وأحيانا أخرى فعلا بصريا. إن تردده المتكرر على المغرب شكل بداية مغامرة فكرية وفنية وحياتية جديدة. بل أكثر من ذلك، استطاع اليومي المغربي ببساطته وفوضاه، أن يحفزه على تجريب أسلوب جديد في الكتابة مغاير في شكله ومختلف في محتواه عن نصوصه السابقة. ولعل مؤلف"Incidents" وكذلك التعليق الذي خصه لرسالة الجيلالي في كتاب" Roland Barthes par Roland Barthes" شاهدة على هذا المنحى الجديد الذي ستسلكه الكتابة البارثية. إن هذا "الإعجاب" بأرض المغرب وطبيعته وساكنته وروائحه وألوانه، سيُسهم أيضا في استعمال أسناد مختلفة وإبداع أشكال تعبيرية جديدة تمزج ما بين النصوص البصرية والمكتوبة.

أما الصورة الفوتوغرافية، فسترافق بارث في رحلاته إلى المغرب باستعمالات وتوظيفات متعددة. وسيكون لها هي الأخرى أثر كبير في محطاته الفكرية اللاحقة. ويمكن تأطيرها عموما في خانتين، الأولى تمثل مشاهد ولحظات متفردة لفضاءات ومناطق جغرافية مغربية متعددة. وأخرى تقدم للرائي بارث نفسه بوصفه موضوعا فوتوغرافيا. وسواء تعلق الأمر بالنموذج الأول أو الثاني فالسمة البارزة لهذه الصور هو الطريقة التي يَتمثَّلُ بها الموضوع المصوَّر أي فوتوغرافيات تقطع مع المُسَطَّح والراكد والجامد، صور تفتح أمام نظر المشاهد أفقا جديدا وتهيؤه نفسيا للنفاذ إلى عمق الصورة وجوهرها ومن ثمة الإبحار في معانيها. إن الرهان الأساس هنا هو التخلص النهائي من هيمنة فكرة المرجعية التي تسيطر على الصورة الفوتوغرافية وتكبِّلُها.

ولعل صورة النخيل التي ترافق النص المعنون بـــ"نَحْوَ الكتابة" مثالا بارزا على ذلك. ويعضد بارث هذا الاختيار من خلال عنوان المفتاح الذي أرفقه بالصورة "نخيل بالمغرب Palmiers au Maroc" وأيضا النص الذي يعرف من خلاله عناصر الشبه بين الحروف الأبجدية في الثقافة الإغريقية والأشجار وتحديدا شجر النخيل. وكلها أفكار وتأملات وتأويلات تسير في اتجاه الاحتفاء بالأشياء والكلمات والصور في زمنها الأول بحيث الفوضى والالتباس الجميلان

يسودان بشكل مطلق. إن هذا الحياد الذي يبني عليه بارث تصوره في انتقاء الصور، سواء تعلق الأمر بالبورتريهات التي تمثله أو تلك التي يستعملها للتوضيح. يقوم على مبدأ يجعل كل المسافات بين الحضارات والحدود بين الثقافات تتلاشى، إن لم نقل تنمحي تماما. فالمتأمل للبورتريهات التي أنجزت له بالمغرب سيلاحظ بأنها لا تختلف تماما عن نظيرتها بفرنسا أو بلدان أخرى. فالمشاهد للصور لا يعثر على دليل قد يهديه إلى مكان التقاط الصورة وزمنها. إن المغرب حاضر ليس بوصفه ديكورا طبيعيا أو عمرانيا أو عنصرا بشريا، وإنما باعتباره لحظة إحساس ورغبة وانتشاء. فالفوتوغرافيات التي يعرض علينا ليست بضاعة أنتجتها عين سائح فتن بنور المغرب، وإنما يقدم درسا في مفهوم النظر ومعانيه وتحديدا كيف ينبغي أن نؤسس لنظر جديد مع الآخر. إنها صور تنفلت من كل تسنين قد يشوش على المعنى الذي أراده لها بارث ويريد أن يتقاسمه مع مشاهده أو قارئه.

إن العلاقة التي تربطه بهذه الصور ومن ثمة مع المغرب ليست في حقيقة الأمر سوى ذريعة للوصول إلى فهم النفس. فالمغرب يلعب هنا دور العامل المساعد للعبور إلى كنه الذات ومعرفة أحزانها وأفراحها، لذاتها وجروحها. إنه الوسيط للبحث عن ذلك الشيء المفقود في الذات.

1- Roland Barthes, ***L'Obvie et l'obtus. Essais critiques III***, éd. Seuil, , Paris, 1982, p.32

2- ***Roland Barthes par Roland Barthes***, éd. Seuil, Coll. Points Essais, Paris, 1975, p.p 48-49